وداعاً .. أيها الشهداء !

بقلم سامي عطفه

أنا جندي ، عجوز .. لن اصف نفسي بغير هذا ، ولن اقدم اسمي ؛ فليس لجندي ما يغنيه في ذكر اسمه ، كل ما يهمني الآن ، ويملك عليّ حواسي ، تلك الصفحة الفضية ، وقد ارتسمت عليها خطوط طويلة ، اطول من الساعات التي انقضت ، تلك هي الخطوط التي رسمتها فلول زوارق الصهيونيين ، المتدافعة نحو الافق ، لتختفي على شواطئها ، كما يختفي الخلد اذا سطع نور النهار .. وثمة هذه الارض المخضبة بالنجيع الحار .. وحولها تمتزج بالدماء ، فتثير تلك الرائحة اللزجة ، التي قدسها الاقدمون ، انها رائحة الارض التي رويت بالدماء .. إن الجثث ، إذن ، لم تفارق ارضها .. هنالك عناق حار .. يشدهم الى الارض .. وهذه الشجيرات ملوية الاعناق ، حانية الاغصان . هنالك تحت شجيرة سقط الملازم انه لا يتحرك – ياسيدي الملازم ... ماذا انه ... ميت .. وهناك على كومة من التراب الجندي الاول ، انه هو الآخر لا يتحرك ، لقد كان صديقي ، اما هي ، فهي هناك .. يجب ان أزحف اليها ... تباً لك ايتها الساق المهشمة ، انك مرتبطة الى الابد .. لقد هشموا ساقي ، ولكنني .. يا الهي .. انني عاجز ، انها زوجتي ولا استطيع ان اتقدم لأغمض عينيها .. انها لم تفارق الحياة بعد ، ودمها ما زال يتدفق من موضع الرصاصة في العنق .

هل انتهى كل شيء ..؟! لم يعد جسدها يتحرك ..! يا لها جثة خيم الموت والسلام عليها ، وما زال شبح الابتسامة الوادعة يتراقص على الوجه الميت .. انه الشيء الحي الخالد الذي لن يمحوه الموت .. هكذا كانت تبتسم لاطفالها ..!

***

كنا نقيم هناك ، في هذا البيت الذي هو آخر ما يمتد اليه الطرف على الروابي فوق السهل . ما زال ، هنالك اطفالها .. لا ادري ان كان اطلاق الرصاص قد ايقظهم .. ايه اطفالي ، صغاري ! أتعرفون كيف تضحكون ملء قلوبكم الآن ؟ .. هل تعرفون كيف تفاخرون بامكم الشهيدة ..؟!.

هذا منزلنا يقع على بعد ميلين من هنا ، هذه المسافة كانت تقطعها دائماً ؛ عندما كانت تحضر لي طعامي .. سنة كاملة على شاطيء طبريا ..

لم نكن نفترق الا نادراً ، فعندما أنتهي من نوبة الحرس كنت اجد لذة في ان اصعد الى منزلنا . اما اذا مكثت هنا فانها كانت تأتي بالطعام والثياب ، واحياناً كانت تأتي لغير سبب .. ولم تكن تعنى بي فحسب ، بل كانت تعطف على جميع رفاقي .. فاصبحت امهم جميعا .. تغسل ثيابهم وتسهر على مريضهم ، كانت تنشر السعادة في هذه البقعة من خطوط القتال .

***

كان يومنا جميلاً دافئاً ، فمنذ الصباح تقشعت السحب ، وبرزت السماء الزرقاء بشمسها المنيرة ، كما لو كنا في يوم ربيعي .. وعلى صفحة بحيرة طبريا الرقيقة انتشر شعاع عذب متراقص ، واخذت الطيور المائية تحوم فكانت تغمس بالماء مناقيرها القرمزية حين تسف ، ثم تتطاير فرحة مستبشرة .. وطفقت زوارق الاعداء تمخر في الماء ذاهبة آيبة ، كانت تتحرك في تشكيلات مختلفة ، تحتشد حيناً ، وتتشتت حيناً آخر .. غير انه كان واضحاً انها تحاول ان تقترب من خطوطنا على الشاطيء بقدر ما تستطيع .

وعندما اتى الجندي الاول عصراً ليجلس معي قليلاً ، بادرته بالقول :

– انظر يا صديقي ، ان يومنا رائق ربيعي ، ان يوماً من ايام هذا الشهر الكئيب المطير لم يضارعه جمالا ..

لكنه كان مقطباً ، يبدو مثقلا بالهموم فاجاب : تباً لهم انهم يكدرون جمال اليوم ...

– دعهم ، انهم في منطقتهم ، ان هذه هي مناوراتهم المعتادة ، تصرفات تفتقر الى اللباقة .

و .. وعندئذ قاطعني محتداً ..

– انظر جيداً ، انهم يقومون بحركة غريبة ، لكأنما هم يستطلعون مواقعنا .. لقد لاحظ هذه الحركة الملازم ، آمر السرية فاتصل بقيادة الخطوط الامامية .

– بم اجابت القيادة ..؟

– يجب ان نرد اعتداءهم ، اذا فكروا بالاعتداء ..

– لعلك واهم أيها الصديق ! انظر .. انظر انهم يلقون بشباكهم الى الماء .

– إن الصيد كذبة ممهودة عنهم ، فكلما خرقوا قوانين الامم المتحدة تمللوا بالصيد .

– على رسلك يا صديقي ، ليست هي المرة الاولى ولن تكون ، دعك من التخيل والوهم ، فان الوحدة المرهقة والتربص يخلقان فينا كثيراً من الاوهام المزعجة .. اذا خرقوا اتفاقية الهدنة ، فاننا سنلقي عليهم درساً قاسياً .

قال صديقي وهو يشعل سيجارة جديدة : « إن قلبي ينذرني بالشر .. ان اليهود لا يفهمون الشرف اكثر مما تفهمه كلاب البحر وخنازيره . فالعدوان دأبهم على حدودنا .. على القطاع الاردني والقطاع المصري .. لقد كنا دائماً نعاملهم بما يقضي به الشرف .. ولكن عدونا ليس شريفاً .. سأعد الرشاش والذخيرة » .

كانت عيناه لا تفارقان تلك الزوارق التي كانت تحاول ان تخترق

« ليست هذه فصولا ملفقة ، بل لقد كان ابطالها ابطالا روحاً ودماً .. فلقد سقطوا – حقيقة – صرعى العدوان الصهيوني الاثيم على الخافر السورية الآمنة على بحيرة طبريا .. لكن بعدما دفعوا العدو الغادر ، ببطولتهم وشهامتهم . لقد كتبت تمجيداً لاستشهادهم .. فلعلها تكون جديرة بهم . »

منطقتنا . وعندما مضى عني تابعته بنظرة فضول . كان في ريعان الشباب ، يتدفق حيوية واباء . وسمعت صوت زوجتي من الوراء . « قد تزداد البرودة في الليل ، بل ان السماء قد تمطر .». وابتسمت لملاحظتها ، فقد كانت السماء لا تزال صافية :

– ما ادراك يا عزيزتي ؟!

– «ان صفحة البحيرة ساكنة كما لو كانت وجه ميت . انهم يقولون ، ان هذا ينذر بعاصفة ليلية مريعة . لقد جئتك بهذا » ووضعت رداء من الصوف ، « وهذا ايضاً ، فقد يسعفك الشاي الحار في الليل البارد . » ووضعت براداً محكم الاغلاق الى جانبي .. ثم وقفت تنظر إليّ برقة ووداعة ...

– سأشكرك طيلة حياتي ، تعالي اجلسي قليلاً كأننا لن نرى بعضنا حتى مساء غد .

وسألت وهي تجلس : « هل اتتك انباء من القيادة ؟ »

– عم .. ؟!

– بشأن تسريحك من الجيش ..؟ » وابتسمت .

– لا موجب لهذا السؤال .. حقاً انني بلغت الخامسة والاربعين ، غير اني سأرفض التسريح .

وتطلعت اليها لألاحظ الاثر الذي تركته كلماتي في نفسها ، وقالت بلهجة حالمة :

–«انها .. خمسة وعشرون عاماً ».. كانت تريد ان تضيف شيئاً آخر ، لكنها لم تجد التعبير الملائم ، سألتها : هل ضقت بالحياة هنا يا عزيزتي .. ان في وسعك ان تذهبي بالاطفال الى قريتنا هناك ..

– لا يا ابن عمي ، لن نتركك ابداً ، كل ما في الامر هو انني احب ألا تفاجئنا امور المستقبل ، دون ان نتهيأ لها . انت ترى اننا سنعود من الجندية كما اتيناها ، دون ان نوفر قرشاً واحداً .

– كل جنودنا فقراء يا عزيزتي ، حتى ضباطنا لا يملكون شيئاً .. ان ما يهم هو ان يقوم الجندي بواجبه .

واستغرقنا الحديث ، وغابت الشمس وراء التلال البعيدة . وأخذت عتمة المساء تفرش ملاءتها على السهل ، وانتبهت الى انها قد تلكأت عندي طويلاً فقلت :

– الآن يجب ان تعودي الى الاطفال ، انهم سيتخوفون في غيابك ، دثريهم جيداً في الليل ، فالبرد قارس .

فوقفت ، ولكنها لم تذهب ، فسألت : هل لك حاجة ؟

– قد يكون رفاقك في حاجة الى غسل ثيابهم ..

– غداً ، سابلغهم رغبتك ..

وسارت ، وسمعت حفيف ثيابها وهي تختفي في اعماق الظلام .

كان الظلام قد خيم على السهل ، واختفى ذلك البريق النضير الذي كانت البحيرة ترسله في اواخر النهار .. واشرأبت قطع كبيرة وراء الافق ، من سحب سوداء مدلهمة .. كان تفكيري لا يستقر على شيء . فكرت تباعاً بزوجتي واولادي ورفاقي كما فكرت بالاعداء .. واخذ سرب من بنات آوى يعوي في البرية البعيدة ، فأحسست بالضيق والكآبة ، بقسوة المساء في تلك الساعات ، فكرت بالاشياء ، كما لو كنت افعل ذلك لآخر مرة ، فكرت بهم بكآبة عميقة وهم .. فقد كان الليل يثقل كاهلي ، كحمل ثقيل . وتدثرت بمعطفي ..

كان كل شيء يبدو صامتاً .. صمتاً ابدياً ، قاهراً ... لا يملك المرء دفعه .

وفجأة برز في منطقة العدو نور كاشف دار نصف دورة ، باتجاه الجنوب ، ثم انطفأ وبرز ثانية فاستلقى على البحيرة ، وبرز نور ثان وثالث .. احسست فجأة بالفضول فوقفت .. وحاولت ان ارى شيئاً يتقدم . لكن الظلام عاد وعاد معه السكون .. وفجأة قفز الى جانبي شبح ، فهتفت : من ؟

– « انه انا .. » كان الملازم ..

– اجل يا سيدي ..؟

– ان العدو يتحرك اليوم خلافاً للعادة ، وعلينا ان نكون حريصين على ان لا يغتنم الذئب فرصته .. هل مدفعك الرشاش على ما يرام ..؟

– اجل سيدي ! انه معد تماماً ..

– حسناً .. تربص .. فقد يكون هنالك هجوم في اية لحظة ..

وغاب الملازم في الظلام . وتربصت وتربصنا جميعاً .. ومرت الساعات ثقيلة ، كل ساعة تحمل غماً جديداً . وادركنا ان الانتظار عبث ، فذهبت مخاوفنا ، واستسلم الجنود الى النوم في المهاجع ، وبقيت ساهراً ، اغالب النعاس ؛ فقد كانت نوبتي .. وفجأة همس صوت من مكان قريب :

– هل تسمع شيئاً ؟

كان صوت الجندي الاول . واجبته نافياً فهتف :

– انصت جيداً ، فهناك هدير في مكان ما من الجنوب الغربي ..

اجل فقد كان هنالك هدير عميق لا يشك المرء في انه هدير محركات ثقيلة ، كان ذلك حوالى النصف بعد التاسعة .. وصاح الجندي الاول :

– اهتف بالملازم ..

– أجل ... ولكن الملازم كان ساهراً يحاول الاتصال بالقيادة عبثاً فقد كانت الخطوط مقطعة .. وفي نفس الوقت اتانا نذير من الجنوب :

– سيدي الملازم .. سيدي .. كان يلهث ، « الكوماندرس اليهودي هاجموا المخافر الجنوبية ..» لقد فهم الامر ، الكوماندوس اليهودي يطوق المنطقة الجنوبية ». وقد قطع الاتصال الهاتفي ..

لقد تتابعت الحوادث ، فقد وصلت الزوارق خلسة الى الشاطيء . وانزلت فرق الكوماندوس .

وتعالى الهدير حتى لكأن الارض زلزلت . والقت الطائرات القنابل المضيئة ، لتكشف المواقع للمهاجمين .. وتعالى صوت الملازم مجلجلاً :

لا تزال في الأسواق

نسخ محدودة من رائعة ديكنز العالمية

قصة مدينتين

لكبير كتاب الإنكليز

تشارلز ديكنز

المترجمة ترجمة كاملة بقلم الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ست ليرات — دار العلم للملايين

« الامر متعلق بشهامتكم يا اخواني ، استبسلوا ، فليس لنا أمل بالنجدة الآن ..» كانت اسلحتنا المدافع الرشاشة ، وبعض القذائف الصغيرة .. وتعالى صوت الملازم « سنموت شرفاء ..» .. اجل هذا كان ما يمكن أن يقال ؛ واحسست بحركة من الوراء :

– من هناك ؟..

– أنا ، أنا ..

تردد الصوت الناعم خافتاً ، أجل كانت زوجتي ، وسيطر على مشاعري سرور مفاجيء .. لكن قلبي قفز من مكانه ..

– الأطفال .. كيف تركتهم ؟. بالله عودي قبل ان يحتدم القتال..

أجابت بوداعة ورجاء : « بالله لا تطردني هكذا ، ان الاطفال في حرز امين ، لقد تركتهم عند الجارة .. دعني الى جانبك ..

– هذا جنون ، قدري الموقف . اننا ممرضون الموت .. لن تتركين صبيتك ..؟

واقبل الملازم .. وقد سمع الحديث:ماذا هناك ، من عندك؟

– زوجتي يا سيدي : انها ترفض الذهاب ، مرها بالله ... هتف الملازم دهشاً :

– عودي يا سيدتي لاطفالك .. إن هذا لا يجوز أبداً .

– ان اطفالي في أمان .. دعني يا سيدي . ارجوك ، عاني اقدم لكم خدمة .. ؟

تريث الملازم قليلاً لا يدري ما يقرر ، ولم استطع ان انطق بكلمة. وتقدمت هي فجثت عند قدميه : « يا سيدي .. دعني ارجوك .. انني افهم .. الله يعين باولادي ..»

وانحدرت دمعة على وجنتي ، وتدفق في قلبي حنين غامض ، فهتفت :

– دعها يا سيدي ، اتركها تؤدي واجبها، فنحن بحاجة لجهدها .

وانحنى الملازم انحناءة عميقة ، وهتف بصوت مضطرب:« سيدتي . انني على ثقة اننا لن نغلب أبداً . ان في قيامك بواجبك معنى رفيعاً سامياً لم يتكشف طيلة القرون السوداء الماضية . » وغادرنا الملازم . ولكن تحت وابل من الرصاص .. وسارعت الى القول :

– سأنفذ كل ما تأمرني به ..

– ستنقلين الذخيرة من المهجع القريب ..

واضطرب الصمت وعلت قعقعة تلك الوحوش الرهيبة .. طائرات .. دبابات .. زوارق .وتوهجت الارض بانوار ساطعة . كانت افواج العدو تتقدم وهي تزرع ارضنا متفجرات ورصاصاً .. ولكن تقدمها كان بطيئاً ، فقد كان رصاصنا هو الآخر يعيق تقدمها . وقفز الى دماغي السؤال : كم سنقاوم ..؟ الى متى ..؟ لقد كان مستقبلنا عندئذ في كف القدر . لقد كنا نفراً قليلا .. خفراء على الحدود .. مستطلعين ، او أي شيء من هذا القبيل ، وكنا نعيق تقدم العدو .. ولكنه كان يتقدم ، فلقد حشد امكانيات ضخمة في عدوانه الغادر . كان الامر يحتاج الى معجزة .. على كل حال فقد كان « هذا يومنا » . وهتفت زوجتي وكانت لا تستقر بين مركز دفاعي والمهجع :« دافع انت ، لا تتلكأ في اطلاق النار » وانطلقت تعدو .

كان هنالك شبح آخر يعدو ، هو ملازمنا .. وقد حمل على ساعده « رشيشاً » وانطلق يزمجر مغضباً ، وابتسمت رغم الحرج ، فلقد فهمت ان الملازم كان يقصد ان يعزز كل مناطق الدفاع ، حيث يقاوم الجنود العدوان الضاري ..

وتدفق العدو ، وتدفقت الحمم ، وتساقط الجنود صرعى .. كان الموت يحصدنا .. ويحصدهم .. ولم يكن الزمن ليسرع في تلك اللحظات ، كان يتلكأ كمسافر نال منه التعب ، يا للأسف ، لقد سقط الملازم جريحاً ، ولكنه يرفض ان يصمت، انه يضع يده على مكان ما من صدره، ويصرخ.. ماذا ؟!.. كانت اليد تفعل المستحيل لتحول بين القلب وبين الموت .

وتدفقت الاضواء الشيطانية ، ولم يكن يمكننا مقاومتها ، وكانت سيول الرصاص تتبعها ، كان العدو يأتي بزوارق جديدة ، بنجدات من الرجال والعتاد ، أما الزوارق القديمة فكانت تؤوب بقتلاه وجرحاه ...

لم اعد اسمع صوت الملازم...لقد انقضت ثلاث ساعات ، واحسست بثقل يدب في ذراعي ...

كنت ارقب بين حين وآخر المجاهدة التي كانت تزودني بالرصاص .. كانت منصرفة الى مهمتها في صمت ، وبعزم غريب .. ورأيت شبحاً يقتفي اثرها .. وتألقت الانوار ، ففمرتنا جميعاً .. وصرخت : بربك احذر ..

كان هنالك عشرة من الاعداء يداورون موقفي، فسددت اليهم نيران مدفعي. وسمعت اذذاك صراخها ، فاتجهت بسرعة اليها : كانت تشير الي بيدها التي تحمل الرصاص.. يا للوحشية!سيل جديد من الرصاص ينهمر على جسدها الاعزل. يا للاوغاد . لقد تهاوت زوجتي على الارض .. وقفزت باتجاهها ، ولكن الرصاص.. الرصاص ، الذي حطم ساقي جعلني اقع على الارض ،على مدفعي، وقاومت الغيبوبة يائساً، وغمر العرق وجهي ، كان لا يزال يحاول الاقتراب منها .. يا إلهي ماذا سيفعل ..؟ كان يتقدم منها ..

– كلا ايتها الكلاب البحرية ، ايتها الخنازير .. سوف احطم رؤوسكم القذرة الذليلة .

وقصفته بمدفعي .. فارتمى بعيداً .. بعيداً جداً منها .

يا الهي ، يا اله الانتقام القادر اعني ، من اجل اطفالها .. يا رب لاتدع عيني تستسلمان لهذا النوم الثقيل .. تعالوا ، تقدموا . ولكن انوار الصبح الاغر كانت العتمة .. وماتت تلك الجلبة الوحشية ، فقد اخذ العدو يتراجع ، جاراً معه آخر قتلاه ..

– ايها الجنود ، ايها الرفاق ..

ولم يجبني الا هدير المحركات التي اخذت تبتعد. « ماذا ؟ ايها الجنود، هل نمتم انتم ايضاً ، . اجل ، كان الملازم طريحا وقد لاصق وجهه الارض، ويده ما تزال على قلبه ، اما الجندي الاول .. فقد كان هو الآخر ميتاً . كنت وحيداً ، هكذا الجندي يبتلي بالوحدة الرهيبة احياناً .. ان الابخرة تتصاعد نشيطة من الارض ، وثمة تلك الشجيرات العارية ملوية الاعناق ، حانية الاغصان ..

آه ، يا زوجتي ، يا شهيدتي .. سأزحف ، ولكن هذه الساق المهشمة لا تطاوعني ، يا الهي .. انني عاجز عن الوصول اليها .. اين انتم يا اطفالي ، يا اطفالي الخمسة .. لا تبكوا ، فان الابتسامة لم تفارق وجهها .. يجب ان اري رفيقتي ..

***

وانزلق على التراب الموحل ، يحاول ان يصل الى الشهيدة ، ولكنه لم يستطع ان يجر ساقه المهشمة ،وتصبب العرق غزيراً . وتداعت تلك الارادة الطيبة .. وأغمض عينيه ، ثم اسلم رأسه الى الارض الحارة .

مصياف (سوريا) **سامي عطفه**